بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

عرضتُ فى هذه الطبعة مرة ثانية نصوصَ هذا القسم الأندلسى من كتاب « المُغْرب فى حُلَى المَغْرب » على أصوله فى النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية وما أُضِيفَ إليها من أوراق نسخة « بلصفورة » المصوَّرة ، حتى أُوفِّر له كل ما يمكننى من صحة ودقة .

وقد أوضحتُ فى مدخل الطبعة الأولى كيف استحال نسيج هذا القسم الأندلسى فى الكتاب أوراقًا مضطربة غير متصلة ، مع سقوط كثير من صُحفه ، حتى غَدَا كأنه أنقاض مطموسة المعالم ، مما جعل الباحثين من المستشرقين وغير المستشرقين يَسْتيئسون من نشره . وقد مضيتُ أحاول إحياءه وردَّه إلى صورته الأصلية بكل ما أملك من جهد ، حتى استقامت أوراقه المتناثرة المتبقية على نَهجه الذى وُضع له ورَسْمه الذى صُنِّفَ عليه ، إلا ما كان من ورقتين تحملان بعض أزجال ابن قزمان نُشِرتا فى الصفحات ٢٨١ – ٢٨٥ من السِّفْر الأول ، وقد رددتهما فى هذه الطبعة إلى موضعهما من اتصال الكلام فى تلك الأزجال .

ونُشِرتْ بعد الطبعة الأولى لهذا القسم من الكتاب بعض مخطوطات كنتُ قد رجعت إليها فى تعليقى على هوامشه ذاكرًا أرقام أوراقها مثل « جذوة المقتبس » للحُمَيْدى و « المُطْرب من أشعار أهل المغرب » لابن دِحْيَة و « الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة » و « اختصار القِدْح المُعَلَّى فى التاريخ المحلَّى » لابن سعيد ، فرأيت أن أُثبت فى الهوامش صفحاتها فى نُسَخها المطبوعة تيسيرًا على الباحثين .

وأنا أشكر شكرًا خالصاً صادقاً كل من نوَّهوا بجهدى المتواضع فى إحياء هذا الكنز الرائع النفيس من كنوز تُراثنا العربى فى الأَندلس . وبذلك أصبح حقائق لا أحاديث ، وأصبح مذلَّلاً لكى ينظر فيه الدارسون ويستنبطوا منه ما يعينهم على كتابة تاريخ أدبنا الأَندلسى كتابة علمية دقيقة . والله ولى الهدى والتيسير .

القاهرة فى ١٥ من أبريل سنة ١٩٦٤ م . شوقى ضيف

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الأولى

حين نَشَرْتُ «كتابَ الردّ على النحاة» لابن مَضاء القُرْطبي اتصلت بالأَندلس وآثارها اتصالا وثيقًا ، ووقفت وقوفًا دقيقًا على ما أَسْدَتْهُ فى خدمة الفكر والثقافة . ولم ألبث أن شُغِفْتُ بما أَبدعَتْه من أشعار وموشحات وأزجال . ونظرت فى المخطوطات لعلى أَعْثُر على كتابٍ جامعٍ من أُمَّهات كتبها الأَدبية يُضِيفُ إلى الباحثين مادةً جديدة يُجَرِّبون فيها آراءهم ، ويُجْرون أبحاثهم .

واطلعتُ على مخطوطة «كتاب المُغْرب فى حُلَى المَغرب» المحفوظة فى دار الكتب المصرية ، فوجدتها نسخةً نفيسة ، لأَنها بخطِّ على بن موسى بن سعيد ، آخر المؤلفين الستة الذين توارثوا الكتاب مدة مائة وخمس عشرة سنة ، واصلين فيه كَلال الليل بكلال النهار، يُنَقِّحون ويُهَذِّبون ، حتى لا يعرضوا إلا الصافىَ الخالصَ من جواهر الشعر ، وما يخطِف سَناه الأَبصارَ من الموشحات والأَزجال .

والكتابُ يضمُّ خمسة عشر سفرًا ، ستة منها لمصر ، وثلاثة لبلاد المغرب ، وستة للأَندلس ، وهى التى أَعجبتنى وبَهَرَتْنِى ، وقد وضع لها المؤلفون اسماً يجمع أَطرافها هو «كتاب وَشْى الطُّرُس فى حلى جزيرة الأَندلس» ولم أكد أَمْضِى فيها ، حتى اعترضتنى صعوباتٌ كثيرة ، إذ وجدتُ المخطوطة مضطربةً ومنقوصة . وما هى إلا فترة غير بعيدة حتى اكتشف معهدُ المخطوطات بالجامعة العربية مجموعة من صُحُفِ الكتاب ، وجدها فى «بلصفورة» من أعمال سوهاج ، فصوَّرها . وفَحصْتُها ، فوجدتها من المخطوطة نفسها التى كتبها ابن سعيد ، انْتُزِعَتْ منها انتزاعاً .

فرجعتُ أحاول نَشْر القسم الأندلسى ، وسرعان ما عرفتُ أن السفرَ الأولَ منه فُقِد جميعُه ، غير أن ذلك لم يَصْرفنى عن نَشْر الأسفار الخمسة الباقية ، فقد أعدتُ لها ترتيبها ، واستقام نظامها .

وأنا أقدِّم اليوم للباحثين هذا الجزءَ الأول ، وهو يحتوى ثلاثةَ أسفَار من النصِّ إلا قليلا ، وهى الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر فى التصنيف العام للكتاب . وجميعُها خاصةٌ بغرب الأندلس وممالكه وكُوَره وبلدانه . وبيمين كل بلدة كتابُها الذى ينتظم أعلامها الممتازين وخيرَ ما خلَّفوه من طرائف الشعر والموشحات والأزجال .

وما أشك فى أن هذا النص سيدفع المورخين للشعر الأندلسى دَفْعاً إلى أن يُعِيدوا النظرَ فى تاريخهم وما نثروه من أحكام فيه ، فيعدلوا فى هذه الأحكام تارة ، ويُلْغُوها ويُثْبتوا موضعها أحكاماً جديدة تارة أخرى . ومعنى ذلك أنه يحملُ كثيرًا من الحقائق الأدبيَّة التى كنا نجهلها عن الأندلسيين وحياتهم الفنية ، وما أكثرَ ما نجهله عنهم ! ومن أجل ذلك تشتدُّ الحاجة إلى أن تُنْشَر كتبهم وآثارهم . ولا يختلف اثنان فى أن ما نُشِرَ عن الأندلس لا يزال قليلا ، وأنَّ نَشْرَ أىِّ نصٍّ جديدٍ يَسُدُّ فراغاً كبيرًا لما يُذيعه من معان وخصائص أدبية ، ولما تفتقر إليه المولفاتُ والمصنفاتُ المنشورةُ من نصوصٍ أخرى تَسْنُدُها ، وتُقَوِّم ما فيها من خللٍ ونقصٍ .

وأفدتُ فوائد جمة من معارضة هذا النص على الأصول التى استمدَّ منها والفروع التى أخذتْ عنه ، وخاصة فيما صادفنى فيه من مَحْوٍ أو تآكل . ومن الوجب أن أشير هنا إلى أنه يُصْلح كثيرًا مما فسد واضطرب فى أصوله وفروعه المطبوعة ، التى فصَّلتُ الحديث عنها فى مدخله ، إذ يُصَحِّح خطأها ،

ويُدَاوى سَقَمها . ويستطيع القارئُ أن يرى ذلك منثورًا فى هوامشه التى وضعنا فيها مقابلاته على كل ما أمكننا الاطلاعُ عليه من آثار أندلسية مطبوعة أو مخطوطة .

وهذه القيمة للنص تضاف إليها قِيمٌ أخرى صَوَّرْناها فى المدخل ، وهى ترجع فى جملتها إلى أن مُصَنِّفيه استخرجوه من كل ما قرءوه عن الشعر الأَندلسى أو سمعوه ، محاولين أن لا يُفَرِّطوا فيه من قطعةٍ شعرية رائعةٍ ، أو موشَّحةٍ مونقةٍ ، أو زجلٍ بديع .

ووراء المدخل نموذجان لصحيفتين : أولاهما من نسخة دار الكتب ، والثانية من نسخة بلصفورة ، وعلى الأُولى عُنْوَانُ السفر الحادى عشر ، وعلى ثانيتهما عُنْوَان السفرِ الرابع عشر . وتحت العنوانين أَسماءُ المولفين الستة للكتاب ، وشهادة ابن سعيد خاتمتهم بأَنه كتب النسخة لخزانة كمال الدين أَبى القاسم عمر بن أَبى جَرَادة المشهور بابن العَدِيم .

وأَعترف بأَنى أَنفقتُ فى هذا العمل سنوات طوالا ، وغايةُ ما أَرجوه مخلصًا أَن أَكون قد وفَّقتُ حقًّا إلى رَفْعِ الحواجز والعوائق التى كانت تحول بين الباحثين فى الأَدب الأَندلسى وبين الفائدة العلمية التامة من هذا النص النفيس .

والله أَسأَلُ أَن يرزقنى السَّدَادَ فى القول ، والإِخلاصَ فى الفكر والعمل ، وهو حَسْبى ونِعْمَ الوكيل .

القاهرة فى ٢٠ من مايو سنة ١٩٥٣ م .

شوقى ضيف

obeikandl.com

مَدْخَل

١

مؤلفو هذا النص الأَندلسى

هذا النص هو القسم الثالث الخاص بالأَندلس من كتاب « المُغْرِب فى حُلَى المَغْرب » . أما القسمان الآخران فأَولهما خاص بمصر وثانيهما خاص ببلاد المغرب كما نسميها الآن .

وأَلَّف هذا الكتاب بالموارثة فى مائة وخمسة عشر عاماً ستةٌ من أدباء الأَندلس تداولوه بالتنقيح والتكميل واحدًا بعد واحد . وكان السببُ فى تأْليفه أَن أَبا عبد الله محمد بن إبراهيم الحِجارىّ وفد على عبد الملك بن سعيد صاحب قلعة بنى سعيد بالقرب من غرناطة سنة ٥٣٠ للهجرة وهو حينئذ تحت طاعة المرابطين ، فأَنشده قصيدة بديعة فى مديحه استهلَّها بقوله :

عليك أَحالنى الذِّكْرُ الجميلُ فجئتُ ومن ثنائك لى دليلُ

فقرَّبه ، وأَكرمه ، وأَعجبته معرفته بأَدباء الأَندلس ومالهم من طرائف الشعر والنثر ، فسأَله أَن يصنِّف له كتاباً فيهم ، فصنَّف له كتاب « المُسْهِب فى غرائبِ المَغْرِب » .

ولم يلبث عبد الملك أَن أَقبل على هذا الكتاب « وصيَّر مطالعته دَيْدَناً ، ثم ثار فى خاطره أَن يضيف له ما أَغفله الحِجارى ، ويختصر ما لم يوافق غرضه وفيه تطويل غير مفيد . وخلفه ابناه أَبو جعفر الشاعر ومحمد ، وأَضافا له ما استفاداه ، ولم يزل لهما خزانة أَدب يتزايد عمرَهما ، إلى أَن استبدَّ به موسى بن محمد بن عبد الملك ، وكان أَعلمهم بهذا الشأْن ، وذكرُه بالمُغْرِب فى فنون الآداب لا يحتاج إلى تنبيه عليه ، فاعتنى به أَشد اعتناء ، وأَضاف إليه ما طالعه فى الكتب والتقطه من الأَفواه »[1] . وأَسلمه إلى ابنه

---

(١) انظر مقدمة «المشرق» لعلى بن موسى بن سعيد : نسخة مخطوطة بالمكتبة التيمورية تحت رقم ٢٥٣٢ – تاريخ ، ونفح الطيب (طبعة دوزى وزملائه) ١/٦٨٠ .

على ، فأخرجه للناس فى صورته النهائية المسماة « بالمُغْرب فى حُلَى المغْرب ».

ونجد لكل من هؤلاء المولفين الستة ترجمةً خاصة فى هذا النص الذى ننشره من الكتاب ، وقد نقل المقرى فى « النفح » عنه ترجماتهم داخل ترجمته لعلى آخرهم [١] . وترجمةُ الحِجارى قصيرة لا تتجاوز فى خلاصتها ما ذكرناه من وفادته على عبد الملك وإعجابه بحديثه ونظمه بعضَ أشعار فيه وفى أسرته . أما عبد الملك فينتسب إلى عمار بن ياسر ، وقد ظل موالياً للمرابطين حتى ثارت عليهم الأندلس سنة ٥٣٩ للهجرة فامتنع فى قلعته ، واستمر ممتنعاً بها حتى خضع راضياً لعبد المؤمن صاحب دولة الموحدين ، وما زال هو وأبناؤه من شيعتهم وعمالهم حتى توفى سنة ٥٦٢ .

وقد اتخذ عثمان بن عبد المومن صاحب غرناطة ابنه أبا جعفر أحمد وزيرًا له ، وكان شاعرًا ممتازًا ، وتعلَّق بحفصة الرَّكونية على نحو ما تعلق ابن زيدون بولاَّدة ، وكانت هى الأخرى شاعرة مجيدة ، وبينهما مراسلات ومساجلات . وتصادف أن كان عثمان بن عبد المؤمن يَهْوَى حفصة ، وكان أسود اللون ، فبلغه أن أبا جعفر يقول لها : « ما تحبِّين فى ذلك الأسود ، وأنا أقدر [أن] أشترى لك من السوق بعشرين دينارًا خيرًا منه » . فأسَرَّها له فى نفسه ، ومكث ينتظر الفُرَص ، وما هى إلا أن فرَّ أخوه عبد الرحمن إلى ابن مردنيش الثائر على الموحدين فى شرق الأندلس ، فاتخذ عثمان من ذلك سبباً لقتله ، وضَرْب عنقه . ولأبى جعفر أشعار كثيرة ، وسيرى القارئ طَرَفاً منها فى ترجمته ، ويمكن الرجوع إليها فى « النفخ » [٢] . وهى تدل دلالة واضحة على أنه كان من الشعراء الأفذاذ الذين أنجبهم هذا الوطنُ العربىُّ البعيد .

وكان محمد أخوه مقدماً عند يحيى بن غانية آخر ولاة المرابطين على الأندلس ، ودخل مع أبيه عبد الملك فى طاعة الموحدين فاستوزروه وولوه الأعمال الجليلة مثل إشبيلية وغرناطة . وكان بعيد الصيت عالىَ الذكر

---

(١) انظر النفح ١/٦٨٢ وما بعدها وكذلك ٢/١٢٤ ، ٢/٥٠٥ ، ٢/٥٤٥ .

(٢) انظر ترجمته فى النفح ٢/٥٤٠ .

ممدَّحاً للشعراء ، وممن مدحه الرُّصافى شاعر الاندلس فى عصره ، وفيه يقول مُشيدًا بـآبائه [١] :

مات الجدودُ الأَقدمون وغادروا ... إرْثَ الثناء على البنين مُؤَبَّدَا
إن الكرام بنى سعيد كلما ... وَرثوا النَّدَى والحمد أَمْجَدَ أَمْجَدَا
قسموا المعالى بالسَّواء وفَضَّلوا ... فيها عمادهم الكبير مُحَمَّدَا
يا واحد الدنيا وسوف أُعيدها ... مَثْنَى وإن أَغْنى نداؤك مَوْحَدَا
أَمَّا وقد طفنا البلاد فلم نَجدْ ... لك ثانياً فكُن الكريمَ الأَوحدا
مَهِّدْ لنا فوق السُّها نَحْطُطْ به ... رحلَ المخيَّم لا برِحْتَ مُمَهِّدَا
الناسُ أَنت وسرُّ ذلك أَنَّهُ ... أَصبحتَ فيهم بالعُلا متفرِّدا
شِيَمٌ تفوق شَذَا المديح وإن غَدا ... مِسْكاً بـأَقطار البلاد مُبدَّدَا
وجميلُ ذكْرٍ قد تضاعف ذِكرُهُ ... مما يُعَاد به الحديث ويُبْتَدَا
سهْلُ الولوج على الفؤاد كأَنَّهُ ... نَفَسٌ يمرُّ على اللسان مُرَدَّدا
فإليك شكرى تُحْفَةً من قادمٍ ... مَغْنَاك زار ومن نَدَاك تَزَوَّدا

ولم يكن محمد شاعرًا ، فليس له فى ترجمته إلا بيتان لم يُسْمَع له غيرهما ولكنه – على ما يظهر – كان والياً عظيماً ، فعلى يديه بُنِى الجامع الأَعظم بإشبيلية . وقد توفى سنة ٥٨٩ للهجرة .

وشَبَّ ابنه موسى على مثاله يعمل مع الموحدين وتحت لوائهم ، وما زال يتفيَّأ ظلالهم حتى ثار المتوكل بن هود (٦٢١ – ٦٣٥) هـ عليهم ، فنفض يده منهم ، وشدَّ على يده ، فولاه أعمال الجزيرة الخضراء .

ويبدو أَنَّ الحياة فى الأَندلس صعبت على موسى بعد وفاة المتوكل ، فولَّى وجهه نحو المشرق ، يريد أن يحج إلى بيت الله ، فمرَّ فى أثناء ذلك بتونس ، واتصل ابنه على بـأُدبائها وخاصة أَبا العباس التيفاشى . وتنعقد بينهما مودَّة

(١) نقلنا هذه القطعة عن كتاب السفينة لابن مبارك شاه الذى صوره معهد المخطوطات فى الجامعة العربية عن نسخة بإستانبول ، وفيه منتخبات لمجموعة من شعراء الأندلس .

أكيدة . ويتحول موسى مع ابنه إلى الإسكندرية سنة ٦٣٩ للهجرة ويظلان بها لتعذر حجهما فى تلك السنة . ولا يلبث موسى أن يلبِّى نداء ربه فى شوال سنة ٦٤٠ .

وفى هذا النص من المغرب دلائل كثيرة على أن موسى نقَّح فيه وأكمل ، ويقول عنه ابنه على فى ترجمته : « لولا أنه والدى لأطنبت فى ذكره ، ووفَّيته حق قدره ، وله فى هذا الكتاب الحظ الأوفر ، وكان أشغفهم بالتاريخ وأعلمهم به ، وقد عاش ستًّا وسبعين سنة ، لم أره يوماً ، يُخَلِّى مطالعة كتاب ، أو كَتْب ما يخلد حتى أيام الأعياد ، وفى ذلك يقول :

يامُغْنِياً عمرَه فى الكأس والوتَرِ ... وراعيـاً فى الدُّجى للأنجم الزُّهُرِ
يَبْكى حبيباً جفاه أو ينادم مَنْ ... يهفو لديه كغُصْنٍ باسم الزَّهَرِ
منعَّماً بين لذَّاتٍ يُمَحِّقُهـا ... ولا يخلِّد من فَخْرٍ ولا سِيَرِ
وعاذلاً لِىَ فيما ظَلْتُ ألزمُه ... يبدى التعجب من صبرى ومن فِكَرى
يقول مالك قد أفنيت عمرك فى ... حِبْرٍ وطِرْسٍ عن الأعصار والخَبَرِ
وظَلْتَ تسهر طول الليل فى تَعَبٍ ... ولا تُرَى أبَدَ الأيام فى ضَجَرِ
أقْصِرْ فإنىَ أدْرَى بالذى طمحت ... لأُفْقه همتى واسأل عن الأثَرِ
واسْمَعْ لقول الذى تُتْلَى محاسنُه ... ـ مِن بعد ما صار مثل التُّرْب ـ كالسُّوَرِ
جمالَ ذى الأرض كانوا فى الحياة وهمْ ... بعد الممات جمال الكُتْب والسِّيَرِ »

وفى هذا الشعر ما يصوِّر ولع موسى بالقراءة وكَدْحه فى المطالعة ، حتى إنه ليتخذ ذلك مُتْعَته بل أُمْنِيَّتَه فى حياته ، إذ ما يزال ساهرًا يبحث ويُنَقِّب فى بطون الكتب والأسفار ، ينتخب من غرائبها ، ويقيِّد من فرائدها .

وروى المقرى فى « النفح » عن ابنه علىٍّ أن شخصاً أعلمه ، وهو والٍ على الجزيرة الخضراء من قِبَل ابن هود ، أن عند بعض النُّبَهاء كراريسَ من شعر الشعراء وأخبار الرؤساء الذين تشتمل عليهم دولة الموحدين ، فأرسل إليه يستعيرها ، فأبى ، وقال : إن كانت له حاجة إليها يأتِ للاطلاع عليها .

فضحك موسى وقال لابنه علىّ : سِرْ معى إليه ، فقال له : ومن يكون هذا حتى نمشى له على هذه الصورة ؟ فقال له : إنى لا أمشى له ، ولكن أمشى للفضلاء الذين تضمنت الكراريس أشعارهم وأخبارهم ، أتُرَاهم لو كانوا أحياء مجتمعين فى موضع أنِفْتَ أن أمشى إليهم ؟ فقال على : لا ، فقال : إن الأثر ينوب عن العَيْن . وذهبا فاطلعا عليها ، وشكر موسى لصاحبها ، ثم قال لابنه : « إنى سُررت بهذه الفائدة أكثر من الولاية ، وإن هذا والله أول السعادة وعنوان نجاحها[1] » .

وفى هذه القصة ما ينطق عن مدى تعلُّق موسى بالكتب والمصنفات وشعر الشعراء ، يدوِّن ويسجِّل ليضيف أزهارًا جديدة إلى باقة « المُغْرب » التى تتناقلها أيدى الأُسرة . وقد نشَّأ ابنه عليًّا على غِرَارِه ، فألحقه بالمؤدِّبين والمعلمين ، واختار له إشبيلية ليرتوى من مناهلها العذبة ، فكانت بها ملاعب شبابه ، وكان بها تأدُّبه وتثقفه على أيدى علمائها وأدبائها من مثل أبى بكر ابن هشام وأبى الحسن الدبَّاج وأبى على الشلوبينى والأعلم البطليوسى وغيرهم . ولهم فى هذا النص من « المُغْرِب » تراجم فى مواضعها ، وكذلك لزملائه الذين صحبوه فى أثناء تلمذته هناك من مثل إبراهيم بن سهل الإسرائيلى.

وعلىٌّ هو آخر حلقة فى هذه السلسلة الذهبية ، فهو الذى نهض بإخراج « كتاب المُغرب » فى صورته الأخيرة ، وبلغ به كل ما كان يأمله أبوه ، لا من حيث تأليف « المُغرب » وإذاعته ، بل أيضاً من حيث تأليف كتاب يقابله عن المَشْرِق ، وقد سماه « المُشْرِق فى حُلَى المَشْرِق » مقابلةً « للمُغْرب فى حلى المَغْرِب » .

ويظهر فى وضوح من كلام على فى مقدمة « المُشرِق » أن أباه هو الذى وضع تصميم ذلك ، يقول : إنه « ثار فى خاطره أن يقابل " المُغْرِب " بكتاب يماثله عن المَشْرق واستعان على هذا الغرض بالمدة وكثرة الكتب والتحكم فى خزائن مَن صحبه من عظماء الملوك فمن دونهم ، وكثرة المخالطة والممازجة لأهل

(١) انظر النفح ١/٦٨٠ .

هذا الشأن وطول العمر المفرَّغ لهذا الغرض وفوائد الأَسفار إلى أن قطعه انتهاء العمر . . . ولم أزل بالمجموعين فى حياته وبعد وفاته إلى أن بلغتُ من كمالهما ما لو وقف عليه لزاد نورًا فى بابه ، ولم يبرح لعينه قُرَّة ، ولقلبه فى كل حين [مُتْعة] ومَسَرَّة . وقطعت مدة طويلة فى ترتيبه [أَنْسج] وأُلْحِم ، وأقدم وأحجم ، إلى أن أَصبت الهدف [وأتبعت] والحمد لله ما سلف بما خلف ، والطلُّ [ينزل] أَمام الوَبْل ، والفضل للوبل لا للطلِّ. على أنى معترف بالاتباع غير مدَّع للابتداع ، مُنْشِدٌ قولَ فاتح باب التأدُّب :

لئن نَحَبَتْ قبلى فهاج لىَ البُكا بُكاها لقلت الفضلُ للمتقدم »

فعلىٌّ نفسه يعترف بفضل أبيه فى وضع خطة « المُشْرِق » والمشاركة فيه وفى « المُغْرِب » . وهذا لا يغضّ بحال من عمله ، فهو الذى انتهى بالكتابين إلى صيغتهما النهائية . وقد أَشاد به كلٌّ من ترجموا له ، وليس أَصدق قِيلاً ولا أعدل شَاهدًا من قول لسان الدين بن الخطيب فيه : « هذا الرجل وُسْطَى عِقْد بيته ، وعلَمُ أهله ، ودُرَّة قومه ، المصنِّفُ الأَديب الرحَّال ، الطُّرْفة ، الإخبارى ، العجيب الشأن فى التجول فى الأَقطار ومداخلة الأَعيان للتمتع بالخرائن العلمية ، وتقييد الفوائد المشرقية والمغربية[1] » . ويقول فيه المقرى : « أَديبُ زمانه غير مدافَع ، من اعترف له أهل الشرق ، بالسبق ، وأهل المَغرب ، بالإبداع المُغْرب . . . الشهير بالمغارب والمشارق ، المحلِّى بجواهره صدور المهارق[2] » . ويقول ابن فضل الله العُمَرى فيه : « أديب مُبْدع ، ولبيب مُمْتِع ، وكانوا من بيت مُلْك لا يُنَهْنَهُ بالوعيد ، وكان لهم حصن سعيد بالأَندلس ، وهو حصن خَيَّم على الغيوم ، وتختَّم بالنجوم ، ونافخ الرياح ، وصافح بكفه الثريا راحاً براح ، وعلا فما طلع إلا فى ذيل أفقه الصباح ، ولا اشتعل المِرِّيخ فى شرفاته إلا دون أَدنى مصباح . . وهو صاحبى الذى أُوافقه فى هذا الكتاب تارة وتارة أؤاخذه ، ومرة أُعاهده ومرة أنابذه ، وكان أَجمَّ من البحر إمدادًا ، وأَسْجَمَ من القطرِ عِهادًا ، وله الكلام الصافى

(١) نفح الطيب ١/٦٤٠ .

(٢) النفح ١/٤٥١ ، ١/٦٣٤ .

الورود ، الضافى البرود ، وما تسير شوارده ، وتُنِير مثل الكواكب فرائده[١] » .

ويقول الصفدى : « ابن سعيد من أئمة الأدب المؤرخين المصنفين[٢] » .

وعلى هذه الشاكلة يَبْهَرُ على بن موسى كل من ترجموا له ، وقد نزل القاهرة وامتزج بأُدبائها وشعرائها من أمثال الجزار والبهاء زهير وابن مطروح وابن أبى الإصبع وسيف الدين بن سابق وموسى بن يغمور نائب السلطة حينئذ . وله صنَّفَ كتاب « رايات المبرزين وغايات المميزين » الذى نشره غرسية[٣] غومس ، انتقاه ، كما يقول فى مقدمته ، من كتاب « المُغْرِب » .

وحدث فى هذه الأثناء أنْ وفَد على القاهرة عَلَمُ حَلَب ، بل علم الشام فى عصره كمال الدين عمر بن إبراهيم بن محمد بن أبى جرادة المشهور باسم ابن العديم ، رسولاً من الملك الناصر إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر ، فاتصل به على بن موسى ، وأفاء عليه ابن العديم من برِّه ووارف ودِّه ، وحبَّب إليه الرحلة معه إلى حلب وحضرة صاحبها الملك الناصر ، فاستجاب إلى دعوته . وهناك ابتسمت له الدنيا من حين نزوله سنة ٦٤٤ إلى وقت رحيله سنة ٦٤٧ للهجرة إذ اتجه إلى دمشق ، وتعرَّف بها على السلطان المعظم توران شاه وأصبح من ندمائه . ونراه فى سنة ٦٤٨ يرحل إلى بغداد ويمر بأَرمينية وأَرَّجان ، ثم يحج إلى بيت الله ، ويرجع من حجه إلى تونس سنة ٦٥٢ وينزل عند صديقه أَبى العباس التيفاشى ، ويخدم معه المستنصر (٦٤٧ ـ ٦٧٥ هـ) وينال عنده الدرجة الرفيعة .

وفى سنة ٦٦٦ يرحل ثانية إلى المشرق ، وربما كانت هذه الرحلة هى التى دخل فيها إيران وأوغل فيها نحو الشرق . ورجع إلى تونس بعد هذه الرحلة ، وأمضى فيها بقية حياته إلى أن وافاه القدر سنة ٦٨٥ . أما ما

(١) انظر ترجمة ابن سعيد فى مسالك الأبصار : نسخة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٦٨ تاريخ ، المجلد الثامن الورقة ٣٨٢ .

(٢) هذا النص من ترجمة ابن سعيد فى الوافى بالوفيات للصفدى : النسخة التى صورتها الإدارة الثقافية فى الجامعة العربية من إستانبول .

(٣) انظر تصحيحاتنا لما فى هذه النشرة من أخطاء فى الجزء الأول من المجلد الثالث عشر من مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ص ٢٠٣ — ٢١٥ .

يزعمه ابن شاكر [١] وابن تَغْرى بَرْدى [٢] من أنه توفى سنة ٦٧٣ بدمشق فغير صحيح لسببين ، أما أولهما فهو أن ابن الخطيب والمقرى [٣] وابن فَرْحون [٤] – وكلهم من مؤرخى المغرب – يتفقون على أنه توفى سنة ٦٨٥ ويوافقهم فى ذلك السيوطى فى حسن المحاضرة [٥] . وأما ثانيهما فهو أن فى دار الكتب المصرية مصورة عن أصل لأَحَدِ كُتُبِهِ بخطِّه وهو كتاب « الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة » وفى نهايته أنه كُتِب سنة ٦٨٣ .

ونرى من ذلك أن على بن سعيد عاش عمرًا طويلا من سنة ٦١٠ إلى ٦٨٥ وملأ صفحات هذا العمر بزيارة خزائن الكتب فى العالم الإسلامى الذى طوَّف فيه ، والنَّقْل منها ، وتأليف الكتب وتصنيفها . وقد خلَّف ثروة ضخمة من المؤلفات والمصنَّفات ، فضلاً عن « المُغْرب والمُشْرق والرايات والغصون اليانعة » فمن ذلك : « المُرْقص والمُطْرب » وهو مطبوع و « الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد » و « المُقْتَطف من أزاهر الطُّرَف » وبدار الكتب المصرية نسخة مصورة منه و « الغُرَّة الطالعة فى شعراء المائة السابعة » و « عُدَّة المستنجز وعقلة المستوفز » و « القِدْح المعلَّى فى التاريخ المحلَّى » وقد نشرت إدارة إحياء التراث بوزارة الثقافة والإرشاد القومى مختصرًا صُنِع لهذا الكتاب ، صنعه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل باسم « اختصار القدح المعلى فى التاريخ المحلى » . ويروى المقرى أنه خلَّف كتاباً يسمى « المرزمة » كان يشتمل على وقْر بعير من رُزَم الكراريس .

وبجانب هذه المصنَّفات المختلفة كان على بن سعيد شاعرًا ، وترك ديواناً رآه المقَّرى ، ونقل منه كثيرًا فى ترجمته له . وسيرى القارئ لهذا النص شعرًا

---

(١) فوات الوفيات لابن شاكر (طبعة بولاق) ٢/ ٨٩ .

(٢) المنهل الصافى لابن تغرى بردى : نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١١١٣ تاريخ ، المجلد الثانى الورقة ٤٥٣ .

(٣) النفح ١/ ٦٤٢ ونقل المقرى هنا ترجمة ابن سعيد عن الإحاطة .

(٤) انظر الديباج المذهب (طبع مطبعة السعادة) ص ٢٠٨ .

(٥) حسن المحاضرة (طبعة مطبعة الوطن) ١/ ٣٢٠ .

كثيرًا له انتخبه هو بنفسه فى ترجمته الخاصة . وهو شعر متوسط ، قلما يرتفع فيه إلى أفق فَنِّىٍّ عالٍ ، فأجنحته لم تكن من القوة بحيث تجعله يحلِّق فى آفاق الفن والشعر العُليا . ومع أن هذا النص من « المُغْرِب » زاخر بالموشحات والأزجال فإن على بن سعيد لم يَرْوِ لنفسه فيه شيئاً من ذلك ، مما يدل دلالة قاطعة على أنه لم يحاول هذين اللونين الجديدين اللذين برع فيهما شعراء الأندلس .

٢

منهج تأليف النص

من يرجع إلى مقدمة « المُشْرِق فى حلى المشْرِق » يجد على بن سعيد يوضح منهج التأليف فيه وفى المُغْرِب بقوله : « كل من التصنيفين مرتَّب على البلاد ، متى ذُكر بلد ذَكَرْتُ كُوَره ، وأتكلم عليه وعلى كل كورة منه .. وأبتدئ بكرسى مملكتها وقاعدة ولايتها بحسب مبلغ [علمى] من إعلام بمكانها من الأقاليم ومَنْ بناها وما يحفُّ بها من نهر أو مَنْزَه أو خاصة معدنية ونباتية ، ومنْ تداول عليها من أبناء الملوك أولى التواريخ التى لا يجب إغفالها . ثم نأخذ فى الطبقات واحدة بعد أخرى ، وهى خمس : طبقة الأمراء ، وطبقة الرؤساء ، وطبقة العلماء ، وطبقة الشعراء ، وطبقة اللفيف . [والأربع الأولى] مخصوصة بمن له نَظْمٌ من أولى الخِطَط المذكورة ، ولها تفسير تقف عليه فى مواضعه . وطبقة اللفيف مخصوصة بمن ليس له نظم من أى صنف كان ، ممن لا يجب إغفاله ، وفيها من النوادر والمضحكات ما يكون [مثل] الأحماض » .

وهذا المنهج العام لتأليف « المُشرق والمُغْرب » جميعاً طبَّقه على بن سعيد على هذا النص الخاص بالأندلس تطبيقاً دقيقاً ، فبدأه بالحديث

عن الأندلس وخصائصها وفضائلها ، ثم خرج إلى كُورِ الأندلس كُورةً كورة . وقد سمَّى هذا القسم كله الخاص بالأندلس « كتاب وشْيِ الطُّرُس فى حلى جزيرة الأندلس » . ثم رجع فقسم الأندلس إلى غَرْب ومَوْسطة وشرق . وأفرد لكل قسم كتاباً : فسمَّى كتاب الغرب « كتاب العُرُس فى حُلَى غرب الأندلس » وسمى كتاب المَوْسطة « كتاب الشفاه اللُّعس فى حلى موْسطة الأندلس » وكتابَ الشرق « كتاب الأنس فى حلى شرق الأندلس » . ثم أخذ يقسم كل كتاب من الكتب الثلاثة إلى ممالكه . وقسم كل مملكة إلى كورها المختلفة ، ووزَّع على ذلك كله الطبقات الخمس التى سماها فى مقدمة « المُشْرق » . وكل مملكة ، بل كل كورة ، بل كل بلدة فى كورة نجد لها كتاباً مفردًا . وقد قسم الغرب إلى سبع ممالك ، وبعبارة أخرى إلى سبعة كتب هى :

(١) كتاب الحلة المذهبة فى حلى مملكة قرطبة .
(٢) كتاب الذهبية الأصيلية فى حلى المملكة الإشْبيلية .
(٣) كتاب الفردوس فى حلى مملكة بَطَلْيَوْس .
(٤) كتاب الخِلْب فى حلى مملكة شِلْب .
(٥) كتاب الديباجة فى حلى مملكة باجَة .
(٦) كتاب الرياض المصونة فى حلى مملكة أُشْبُونة .
(٧) كتاب خدع المماقة فى حلى مملكة مالَقه .

وعلى نحو تقسيمه للغرب إلى كتب سبعة باعتبار الممالك قسم المَوْسطة إلى أربعة كتب هى :

(١) كتاب النفحة المندلية فى حلى المملكة الطُّلَيْطِلية .
(٢) كتاب النفحة البستانية فى حلى المملكة الجيَّانية .
(٣) كتاب الكواكب المنيرة فى حلى مملكة إلْبيرة .
(٤) كتاب النشوة الخمرية فى حلى مملكة المَرِيَّة .

وقسم الشرق باعتبار ممالكه إلى ستة كتب هى :

(١) كتاب التثمير فى حُلَى مملكة تُدْمير .
(٢) كتاب الروضة النرجسية فى حلى المملكة البَلَنْسِيَّة .
(٣) كتاب الفصوص المنقوشة فى حلى مملكة طَرْطُوشة .
(٤) كتاب شفاء الغُلَّة فى حلى مملكة السَّهْلَة .
(٥) كتاب ابتسام الثَّغْر فى حلى جهات الثَّغْر .
(٦) كتاب اللمعة البرقية فى حلى المملكة الميورقية .

وكل كتاب لمملكة من هذه الممالك ينقسم بدوره إلى كتب باعتبار كُورها المختلفة ، فالكتاب الأول الخاص بمملكة قرطبة ينقسم إلى أحد عشر كتاباً ، هى :

(١) كتاب الحلة الذهبية فى الكورة القُرْطُبية .
(٢) كتاب الدرَّة المَصُونة فى حلى كورة بُلْكونة .
(٣) كتاب محادثة السَّيْر فى حلى كورة القُصَيْر .
(٤) كتاب الوَشْى المصوَّر فى حلى كورة المدوَّر .
(٥) كتاب نيل المراد فى حلى كورة مُرَاد .
(٦) كتاب المزنة فى حلى كورة كُزْنَة .
(٧) كتاب الدرِّ النافق فى حلى كورة غافق .
(٨) كتاب النغمة الأَرِجَة فى حلى كورة إِسْتِجَّة .
(٩) كتاب الكواكب الدرية فى حلى كورة القَبْرِيَّة .
(١٠) كتاب رقة المحبة فى حلى كورة إِسْتَبَّة .
(١١) كتاب السَّوسانة فى حلى كورة اليُسَانة .

وكل كتاب من هذه الكتب الخاصة بالكُوَر ينقسم بدوره إلى كتب باعتبار البلدان المهمة فى الكورة ، فكتاب الكورة القرطبية مثلاً ينقسم إلى خمسة كتب ، هى :

(١) كتاب النغمة المُطْربة فى حلى حَضْرَة قرطبة .
(٢) كتاب الصبيحة الغرَّاء فى حلى حضرة الزَّهْرَاء .
(٣) كتاب البدائع الباهرة فى حلى حضرة الزَّاهِرة .
(٤) كتاب الوَرْدَة فى حلى مدينة شَقُنْدَة .
(٥) كتاب الجرعة السَّيِّغَة فى حلى قرية وَزَغَة .

وبهذه الصورة تشبه كتب الأَندلس فى هذا النص شجرة كبيرة ، تخرج من جِذْعها فروع مختلفة ، وتخرج من الفروع غصون كبيرة ، وتخرج من الغصون الكبيرة غصون صغيرة ، وتخرج من الغصون الصغيرة أَوراق متنوعة . ومن هنا كان منهج تأليف هذا النص معقَّدًا ، وخاصة أَن كلمة (كتاب) تتردد فيه مع كل فرع وكل غصن وكل ورقة .

وفى كل قاعدة لمملكة يتحدث المؤلفون للنص عن الطبقات الخمس من أَصحاب التراجم ، ولكن بأُسلوب خاص ، وذلك أَن القاعدة تُعَدُّ عروساً لمملكتها . وفى اصطلاح المؤلفين للنص أَن للعروس الكاملة الزينة منصّةً وتاجاً وسلْكاً وحُلَّة وأَهداباً . أَما المنصة فخاصة بالمعلومات الجغرافية عن القاعدة وما يتصل بذلك من متنزَّهاتها أَو المنشآت فيها من مساجد وقصور ونحو ذلك وأَما التاج فخاص بمن حكموها . وأَما السلك فخاص بأَشرافها ورؤسائها من الوزراء والكتاب والقضاة ، وعلمائها من الفقهاء والنحاة والمحدِّثين والفلاسفة ، وشعرائها المختلفين . ولكل مجموعة من هذه المجموعات كتاب خاص بها داخل السلك . ويلاحَظ أَن كل من يتحدثون عنه فى السلك يكونن ممن عانَى صناعة الشعر . وأَما الحُلَّة فخاصة بطبقة اللفيف ممن ليس له نظم ولا شعر من الطبقات السابقة ، ولكن يحسن أَن لا يخلو النصُّ منه . ويلى ذلك كله الأَهدابُ ، وهى خاصه بالوشَّاحين والزجالين ، ويتبعهم بعض المضحكين وما اشتهر من نوادرهم .

وقد تنقص كتبٌ داخلَ السلك ، وقد لا تأتى الحُلَّة ، وقد لا يأتى سوى

المنصة . كل ذلك فى القاعدة أو العروس ، أما فى البلدان الأخرى فالعادة أن لا يُتَّبَع هذا الترتيب ، والكثير الأكثر أن تُذْكَرَ كلمة مقتضبة عن البلدة يليها أهم مَنْ نبغوا فيها . وإذا كانت بلدة كبيرة وُضِعَ لها بساطٌ وهو يقابل المنصة فى الحاضرة ، ووراء البساط السلكُ ، وقلما تأتى وراء ذلك أهدابٌ ، وقد تأتى كما فى « شَرِيش » .

وأظن فى ذلك كله ما يعبر عن الحقيقة ، وهى أن النص لا يطَّرد سياق التأليف فيه ، فقد تأتى القاعدة وليس معها أهداب ، بل ليس معها سلك ، وقد تأتى غير القاعدة ، ومعها السلك ، وقد يكون لها أهداب .

ومع ذلك فالإنسان لا يتصفحه حتى يشعر شعورًا واضحاً بأن من ألَّفوه عانوا كثيرًا فى ترتيب مقدماته وإنزال طبقاته ، فضلاً عما عانوه فى استقصاء ترجماته وجمعها وإحصائها ورَصْفها غير مقَصِّرين ولا وانين .

٣

مصادره

يتضح من منهج تأليف هذا النص أنه يحتوى معلومات جغرافية وتاريخية وأدبية عن كل كورة من كُوَر الأندلس ، ومن أجل ذلك كانت مصادره تتنوَّع تنوُّعاً شديدًا ، ومع ذلك فيمكن أن نردَّها إلى ثلاثة أنواع ، هى : المشاهدة ، والرواية الشفوية ، والمصنَّفات التى استمدَّ منها مولفوه .

والمشاهدة أساسية فى المعلومات الجغرافية عن الكُورَ المختلفة وخصائصها النباتية والمعدنية ، والحِجارى هو فاتح هذا الباب ، وله منه الحظ الأوفر ، ويليه المؤلف الأخير على بن موسى المشهور باسم ابن سعيد ، وهو يهتم خاصة بالمتنزَّهات وما صيغ فيها من أشعار أو موشحات .

وقد أُتيح للنص من الرواية الشفوية ما لم يُتَح لأى كتاب أندلسى ، إذ

تداول عليه ستة مؤلفين فى مائة وخمس عشرة سنة متصلة ، يترجمون فيها لأشخاص عاصروهم فى القرنين السادس والسابع للهجرة ، فكانوا يلتقون بهم ، ويروون عنهم مشافهة أطرفَ مالهم من أشعار وموشحات وأزجال . ولعلىٍّ فى ذلك قصب السبق ، إذ نراه يضيف إلى الرواية عن الشعراء مباشرةً الروايةَ عن راوٍ واحد بينه وبينهم مثل ابن الأبّار وابن العديم .

ولا ريب فى أن هذين المصدرين : المشاهدة والرواية الشفوية يُضفيان على النص حيوية شديدة ، إذ نقرأ وصفاً للبلدان الأندلسية صوَّره مشاهدون رأوه بأعينهم ، كما نقرأ أخبارًا حية لوزراء وكتّاب وعلماء وشعراء شاهدهم من رووا أخبارهم ورأوهم رأى العَيْن .

وأما المصدر الثالث ، وهو المصنفات التى استمد منها المؤلفون ، فكثير كثرة غامرة . ولهم فى ذلك طريقة لا يزايلونها ، وهى ذكر المصدر ، ثم كتابة ما ينقلونه عنه . ولم يكونوا يعرفون حينئذ فكرة وضع المصادر فى الهوامش على نحو ما نصنع الآن ، فوضعوها فى متن الكلام وفى أثنائه .

وهذه دقة بعيدة فى التصنيف ، إذ يُنْسَب كل كلام إلى صاحبه ، وبذلك يكون للكلام المنقول أهميته ، ويكون دائماً بحيث يمكن مراجعته على أصوله . وأهم مصدر يعتمد عليه النص هو كتاب « المُسْهِب فى غرائب المَغْرِب » للحجارى ، فهو أصله وعَتاده وعِماده .

ويلى المسهب فى الجانب الجغرافى كتاباتُ أحمد بن محمد بن موسى الرازى المتوفى سنة ٣٤٤ للهجرة وتذكر كتب التراجم له كتباً مختلفة فى الأندلس وأخبارها . ويلى هذه الكتابات كتاب « فرحة الأنفس » لابن غالب ، وهو من أدباء القرن السادس الهجرى ، ثم كتاب مشرقى ، هو كتاب « المسالك والممالك » لابن حوقل .

ويعتمد النص فى التاريخ على كتابات ابن حيان المتوفى سنة ٤٦٩ للهجرة ،

إذ يتكرر فيه دائماً ذكر «المقتبس» وكان يقع فى عشرة مجلدات ، و «المتين» وكان يقع فى ستين مجلداً ، ثم «تاريخ إفريقية والمغرب» للرقيق القيروانى ، وهو من مؤرخى القرن الرابع الهجرى ، ورسالة «نقط العروس فى تواريخ الخلفاء[1]» لابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ للهجرة ، و «تاريخ غرناطة» للملاحى المتوفى سنة ٦١٩ .

ويرجع النص إلى كتب تراجم كثيرة ، منها العام ومنها الخاص ، فمن كتب التراجم العامة «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرَضى المتوفَّى فى حدود سنة ٤٠٠ للهجرة وهو مطبوع ، و «جذوة المقتبس» فى تراجم علماء الأندلس وأدبائها للحميدى المتوفى سنة ٤٨٨ ، وفى دار الكتب المصرية نسخة مصوّرة منه وقد طبع أخيراً بالقاهرة ، ثم «الصلة» لابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨ وهى مطبوعة .

وأما كتب التراجم الخاصة فكثيرة ، منها ما يتصل بالقضاة مثل «كتاب القضاة» لابن حيان ، و «كتاب القضاة» لأبى عبد الملك أحمد بن عبد البر . ومنها ما يتصل بالأدباء والشعراء أمراء وغير أمراء مثل كتاب «سقيط الدرر ولقيط الزهر» وهو خاص ببنى عباد وشعرهم ، صنفه ابن اللبّانة المتوفى سنة ٥٠٧ للهجرة . ومن هذا النوع «قلائد العقيان» للفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٢٩ ، و «الذخيرة» لابن بسّام المتوفى سنة ٥٤٢ ، و «سمط الجمان وسفط اللآلى وسقط المرجان» لأبى عمرو بن الإمام ، ذكر فيه من أخلّ ابن خاقان وابن بسّام بتوفية حقه من الفضلاء ، وألحق بذلك من أدركه بعصره فى المائة السادسة ، وكتاب «زاد المسافر» لأبى بحر صفوان ابن إدريس المتوفَّى شاباً سنة ٥٩٨ وهو ذيل على السمط ، وقد طبع أخيراً . ومن هذا النوع كتاب «المُغْرِب فى آداب المَغْرِب» لابن اليَسَع المتوفى سنة ٥٧٥ صنّفه بمصر وطرّزه باسم صلاح الدين ، وكتاب «المُطْرِب من

(١) انظر نشرتنا لهذه الرسالة فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة المجلد الثالث عشر الجزء الثانى.

أشعار أهل المَغْرب » لابن دِحْيَة المتوفَّى سنة ٦٣٣ صنَّفه بمصر أيضاً وطرَّزه باسم السلطان الكامل . وبجانب هذه الكتب الأَندلسية التى رجعوا إليها نجد كتباً مشرقية خاصة بالتراجم ، تَرْجَم أصحابها لشعراء الأَندلس كما ترجموا لغيرهم مثل « اليتيمة » للثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ ، و « خَريدة القصْر وجَرِيدة العَصْر » للعماد الأَصفهانى المتوفَّى سنة ٥٩٧ و « عقود الجُمان فى شعراء الزمان » للكمال بن الشَّعَّار المتوفَّى سنة ٦٥٤ .

ويستقى النصُّ أيضاً من الكتب التى عُنِيت بنصوص الشعر الأَندلسى مثل « الحدائق » لابن فرج الجيَّانى المتوفَّى بسجن الخليفة المستنصر ، وقد عارض بكتابه هذا كتاب « الزهرة » لابن داود الأَصبهانى ، وحاول أن يتفوَّق عليه ، فبينما جعل ابن داود كتابه مائة باب فى كل باب مائة بيت جعل ابن فرج كتابه مائتى باب فى كل باب مائة بيت ، ولم يورد فيه لغير الأَندلسيين شيئاً . ومن هذه الطائفة كتاب « البديع فى فصل الربيع » لحبيب المتوفَّى حول سنة ٤٤٠ ، وكتاب « حديقة الارتياح فى وصف حقيقة الراح » لأَبى عامر محمد بن مسلمة ، وكتاب « الحديقة فى البديع » لأَبى محمد الحجارى ، وهو عمُّ صاحب « المُسْهِب » ، و « رسالة الطُّرف » للشَّقُندى المتوفى سنة ٦٢٧ .

ومع هذا الحشد من المصادر المختلفة لأُدباء الأَندلس وشعرائها ورؤسائها وعلمائها نجد النص يرجع فى باب الأَزجال إلى كتاب « مُلح الزجالين » للحسن بن أَبى نصر الدباغ وهو من أَدباء القرن السابع ، كما يرجع إلى دواوين بعض الشعراء مثل ابن الزقَّاق والرُّصَافى .

وإن الإنسان ليخيل إليه كأَنما تصفَّح مولفو النص مجموعة المصنفات الأَندلسية فى القرون : الرابع والخامس والسادس والسابع للهجرة ، وانتخبوا منها أطرف ما وقعت عليه أبصارهم من أَخبار وأَشعار ، ليصوروا الأَندلس فى أَعظم صورة ، ويظهروها فى أَتمّ حلية ، وقد عبَّر عن ذلك آخرهم فى مقدمته للمُغرب بقوله : « جُنِيتْ له بالموازنة ثمراتُ الكتب ، ومخِضَت فيه بالمطاولة

زبَدُ الحِقَب ، فلم تَقْصُرْ يَدُهُ عن عصرٍ من الأَعصار ، ولا قَصُرت خُطاه عن قطر من الأَقطار ، فجاءَ كتاب راحةٍ قد تعبتْ فيه الأَسماعُ والأَبصار والأَيدى والأَفكار ، وأُفْنِيت على إظهاره إلى الوجود وظائفُ الأَعمار ، ولم يزل يُقْرَن بسواده وبياضه سوادُ الليل وبياضُ النهار . . وما بَرِحت نارُ القرائحِ تُحْمَى لتخليصه ، وصوائدُ الأَذهان تُذْكَى لتلخيصه ، حتى أُبْرِزَتْ حُلاه الذهبية كالذهب الإِبْرِيز ، ووقفتْ فى موقف التبريز[1] » .

٤

قيمته

لعل هذا النص أَنْفَس مصدر بين أَيدينا يصوِّر الشعر الأَندلسى فى عصوره المختلفة ، فقد رسم مؤلفوه خطوط هذا الشعر وألوانه ، وكادوا يجسِّمونها تجسيماً عن طريق التراجم الكثيرة التى حشدوها فيه ، وقد بلغت نيفاً وأَربعين وستمائة .

وكثير من هذه التراجم كان مجهولاً ، وكثير منها كان المعروف عنه قليلاً ، وكثير أُضِيفت إليه أَخبار وأَشعار جديدة . وهذا كله يهيئ مادة وافرة لتأْريخ الشعر الأَندلسى تأْريخاً علمياً دقيقاً ، إذ توضَع المستندات والوثائق بين يدى المؤرخ ليحكم ويكوِّن ما يشاء من آراء وأَفكار .

وما نشك فى أَن هذا النص سيتيح لمؤرخى الشعر الأَندلسى فرصة ذهبية كى يعودوا إلى ما كتبوه ، فيراجعوه ويصحِّحوا فيه ، ويضمُّوا إليه ما يمدهم به من معلومات جديدة عن الشعر والشعراء . ونحن نعرف أَن تاريخ الشعر الأَندلسى لا يزال غامضاً فى كثير من جوانبه ، لقلة ما نُشِر من الكتب التى عاصرته ووصفَتْه ، ولقلة الدواوين التى بقيت منه ، فأَكثر ما كان من ذلك سقط من يد الزمن . ومن أَجل ذلك يُعَدُّ نَشْرُ أَىِّ نصٍّ جديد فيه شيئاً بالغ الخطر .

---

(١) انظر ترجمة ابن سعيد فى المسالك حيث نقل ابن فضل الله العمرى فصولا من مقدمة المغرب .

ولا يُقَدِّمُ هذا النص شعراءَ أندلسيين وشعرهم فحسب ، بل هو يضيف إلى ذلك معلومات كثيرة عن بيئاتهم وبُلْدَانهم ومَنْ عاش فى هذه البلدان من ساسة ورجال حُكْم : أمراء أو وزراء أو كتّاب ، ومن رجال معرفة وثقافة : قضاة أو فقهاء أو نحاة أو أطباءَ ، فكل ذلك يجمع هذا النص جُذَاذاته من هنا وهناك بحيث تتناسق المقدمات وتَلْتئِمُ الطبقات .

نحن إذن بإزاء نصٍّ مهمٍّ يفيد فوائد محقَّقة فى تاريخ الشعر الأَندلسى ، لا من حيث الترجمة للشعراء فحسب ، بل أيضاً من حيث تصوُّر الحركات الأَدبية فى البلدان الأَندلسية ، وما نهض هناك من دول أو إمارات ، فكل قاعدة لمملكة ، تُوصَفُ لنا ، ثم يُعْرَضُ علينا كلُّ ما كان بها من نشاط سياسى وعلمى وأَدبى .

وعلى نحو ما يحدث ذلك فى القواعد قد يحدث فى غيرها ، ولنأخذ لذلك مثلا مدينة الزاهرة التى شادها ابن أَبى عامر وزير الخليفة المؤيَّد ، وسكنها فى وزاته كما سكنها ابناه من بعده ، فإننا نجد فيها ترجمة الخليفة المويد كما نجد فيها ترجمة المنصور بن أَبى عامر وابنيه المظفَّر والناصر ، ونجد حولهم من الأَشراف المطرِّف الهيثمى والبُلِّينُه ، ومن القواد يَعْلَى بن أحمد بن يَعْلَى ، ومن الكتاب أَبا حَفْص بن بُرْد ، ومن العلماء عيسى بن عبد الملك بن قُزْمان وابن الكتّانى وابن الهِنْدِى ، ومن القضاة السُّلَمى وابن يَبْقَى وابن بِرْطال وابن ذَكْوَان وابن فُطَيس ، ومن الشعراء النظَّام وأَبا مضر الطُّبْنى وابن أَبى الحسن وابن شُخَيْص وجعفر بن أَبى على القالى . وبذلك نستطيع أن نعرف كل ما كان يموج به بلاط المنصور بن أَبى عامر وابنيه من ندماء وفقهاء وقضاة وعلماء وشعراء .

وإذا كانت الزاهرة تُجْلَى علينا بكل ما كان فيها على هذا النحو فإن الحواضر والقواعد جُليت فى أَضواء أَتمَّ وأَكمل . وقد حشد لها النص كل ما كان بها من وشَّاحين وزجالين . ونستطيع أن نعرف خطره فى هذا الجانب جانب الموشحات والأَزجال إذا لاحظنا أن أَهم نصٍّ كُتب عن هذين الفنين

حتى الآن هو نص ابن خلدون الذى كتبه فى مقدمته . وهذا النص نقله ابن خلدون عن كتاب « المُقْتَطف مِن أزاهر الطرَف » لعلى بن سعيد . وعلى بن سعيد فى حقيقة الأمر إنما لخَّص فى هذا النص ما كتبه هو وأسلافه عن هذين الفنين فى « المُغْرب » أو بعبارة أخرى فى هذا النص الذى ننشره ، إذ لم يتركوا بلدًا فيه وشَّاحٌ أو زجال إلا عرضوا له ، وأودعوا كتابهم أطرف ما تناقله الأدباء عنه .

وكما أن نصَّ ابن خلدون تلخيص وإيجاز لما كتبه مؤلفو « المُغْرِب » عن الموشحات والأزجال ، فكذلك ما نقروه فى « نَفْح الطيب » من أشعار أندلسية هو الآخر إيجاز وتلخيص لما كتبه مولفو « المُغْرب » عن شعراء الأندلس. وبمجرد أن يخرج هذا النصُّ للباحثين سيرون رَأىَ العَيْن أن « نَفْح الطِّيب » إذا استثنينا مقدمة المقَّرِى عن رحلته إلى المشرق وبعض من ترجم لهم ممن حجُّوا البيت الحرام وما كتبه فى خاتمته عن إخراج المسلمين من الأندلس ليس إلا نُقُولاً عن « المُغْرِب » .

وأخَذ المقرى هذه النقول دون أن يُعَيِّن مصدرها من « المُغْرب » فى الكثير الأعمّ منها ، حقًّا إنه سمَّى على بن سعيد عشرات المرات ، ولكنه حاول فى أغلب الأحوال أن يضلِّل القارئ ، فنقل عنه دون أن يُسَمِّيه مرارًا وتكرارًا . وأحياناً كان ينقل عنه ويزعم أنه ينقل عن الحِجارى فى « المُسْهب » . ونحن نعرف الآن أن « المُسْهب » تسلَّمه عبد الملك بن سعيد ، ولم يخرج إلى الناس إلا فى هذه الصورة الجديدة من « المُغْرب » التى أعطاها شكلها النهائى على بن موسى بن سعيد . وعلى شاكلةِ ما صنع المقَّرى بالحجارى صنع ببقية المصنِّفين الذين ينقل عنهم مؤلفو « المُغْربِ » من مثل الرازى وابن حزم وابن حَيَّان وابن غالب والشَّقُنْدِىّ وغيرهم ممن يُزَخْرِفُ بهم كتابه .

ونحن إنما نلفت النظر إلى ذلك ليتضح أن هذا النص الذى ننشره يحمل بين دفتيه الأصل الحقيقى لما فى « نفح الطيب » من أشعار الشعراء وأخبارهم ، حتى يُنْتَفع به فى إخراج نشرة جديدة « للنفح » تخلو من الأغلاط والأخطاء .

والحق أن « نفح الطيب » إذا استثنينا منه ما أشرنا إليه آنفاً وما فيه من نقول عمن تأخروا عن على بن سعيد مثل ابن خلدون وابن الخطيب كان فى مجموعه نقولاً مضطربة عن « المُغْرب » . ونزعم أنها مضطربة لأن النص الذى بين أيدينا صُنِّفَ هذا التصنيف المعقَّد على البلدان ، وصاغه مؤلفوه على شكل تراجم وُضِعت فى طبقات ، ورُتِّبَت لها مقدمات جغرافية وتاريخية . وجمع المقَّرى هذه المقدمات وضمَّها متلاصقة متجاورة فى الجزء الأول من « النفح » ولم يحتفظ إلا بقليل من التراجم . أما بعد ذلك فنجد ركاماً من أخبار الشعراء وأشعارهم يسوق بعضه بعضاً ، كأننا أمام سيل لنهر كبير . وليس هذا النهر إلا كتاب « المُغْرِب » الذى كانت قطراته منعقدة فى مقدمات وطبقات ، فسالتْ ، وأصبحت نشَرًا لانظام لها : خَبَرٌ من هنا وخَبَرٌ من هناك ، وشعرٌ من هذه الصحيفة وشعرٌ من تلك ، فى فوضى لا مثيل لها من حيث التصنيف والتأليف . وما أشبه المقَّرى فى ذلك بشخص عمد إلى نسيج متصل ملتحم ، ففصَل بين خيوطه بل قل نقضها أنكاثاً من بعد قوة .

ومن أجل ذلك كله يكون نَشْرُ هذا النصِّ وإحياؤه حَدَثاً مهمًّا فى تاريخ الشعر الأندلسى ، فهو توضيح وتبيين لما جاء فى مقدمة ابن خلدون عن الموشحات والأزجال نقلاً عن « مقتطف » على بن سعيد ، وفى الوقت نفسه تنظيم وتنسيق لما جاءَ فى « نفح الطيب » عن الشعر الأندلسى وأصحابه .

وليس هذا كل ما يَحْوى النص من قِيمَ ، فهو يَحْوى بجانب هذه القيم التاريخية قِيَماً فنية ، إذ انتخب فيه مؤلفوه دُرَر الشعر الأندلسى وفرائده وبدائع الموشحات والأزجال وطرائفها ، ومكثوا مائة وخمس عشرة سنة يُصَفُّون ويُرَوِّقون ويُنَقِّحون وينتخبون ، حتى اختاروا له آنق الأشعار وأروع الموشحات والأزجال . وقد عبرَّ عن ذلك على بن سعيد فى مقدمته له ، إذ قال : « وطبقته العليَّة أنه لم يورَد فيه إلا ما كان بمنزلة الوسائط من العقود ، والأعلام من البُرُود ، والخِيلان من الخدود ، مما يحاكى شَعْشَعَةَ الشمس على صفحات الأنهار ، ورقْرَقَةَ الظَّلّ فى لحظات الأزْهار : قدودٌ معان فُصِّلت عليها ثياب

ألفاظ ، ومحاضراتٌ تَجْرى كالدِّهان على ألْسُن الحُفَّاظ » .

وهذا الاتجاه فى تأليف النص يجعله مادة غنية للحكم على الشعر الأندلسى وما أحدثه الشعراء من موشحات وأزجال . فعن طريقه نستطيع أن نعرف مدى اتصال الأندلسيين بالتيار المشرقى ومدى انفصالهم ، وبعبارة أخرى مدى تقليدهم ومدى تجديدهم . ومعنى ذلك أن النص يخدم نقاد الشعر الأندلسى كما يخدم مؤرخيه ، إذ قدَّم لنا مصنفوه فيه مَسْرَحَ الفَنِّ فى الأندلس بكل ما ارْتَسَمَ عليه من صُوَرٍ ونَبَضَ به من حياة ، بل بكل ما أبدعوا فيه وصاغوه صياغة فنية باهرة .

٥

وصف مخطوطته

ومخطوطةُ هذا النصِّ الذى ننشره كتبها علىُّ بن سعيد لصديقه ابن أبى جرادة المشهور باسم ابن العَدِيم ، فعلى غلاف كل سِفْرٍ من أسفارها نجد هذه العبارة أو ما يماثلها : « نَسخه بخطه ، برسم الخزانة الجليلة الصاحبية الكمالية عمَّرها الله بدوام مالكها سيد الأصحاب رئيس صدور الشام علم العلماء الصاحب الكبير كمال الدين بن أبى القاسم بن أبى جرادة العقيلى خلَّد الله إحسانه وعطَّر شكره زمانه ، مكمِّلُ تصنيفه على بن موسى بن محمد ابن عبد الملك بن سعيد » .

وفى نهاية كل سفر تاريخُ الخلوص منه ، وكل التواريخ تقع بين سنتى ٦٤٥ و٦٤٧ للهجرة وهى توافق ما قلناه آنفاً من أن عليًّا صحب ابن العديم إلى حلب سنة ٦٤٤ وظل فى ضيافته حتى سنة ٦٤٧ . ويظهر أن هذه النسخة خرجت من حوزة بنى العديم بعد كتابتها بنحو قرن على الأكثر ، فنحن نجد على غلاف السفر الرابع منها وهو من أسفار القسم الخاص بمصر ، هذه العبارة للصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ : « طالعه وانتقى منه مالكه خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدى عفا الله عنه » . وقد ذكر فى ترجمته لعلى بن سعيد بكتابه « الوافى »

كتاب «المغْرب» وقال : «ملكتُه بخطه» أى بخط علىٍّ الذى ترجم له . وفى أخبار الصفدى أنه ولى كتابة السر بحَلَب وباشر كتابة الإنشاء بمصر ودمشق ، فلعله تملك هذه النسخة حين كان يعمل هناك .

على كل حال يدل ذلك على أن هذه النسخة مُعَيَّنَةُ النَّسَب ، فقد كتبها مكمِّلُ تصنيف الكتاب فى تاريخ محدود أثبته على غلاف الأسفار المختلفة ، وتملَّكها الصفدى وشهد فى كتابه «الوافى» أنها بخط ابن سعيد ، فهى نسخة نفيسة من الكتاب .

وبجانب تملُّكِ الصفدى لها نجد عليها قراءات مختلفة ، فنحن نقرأ على غلاف السفر الرابع هذه العبارة التالية : «استفاد منه داعياً لمالكه إبراهيم ابن دقماق عفا الله عنه ورحمه آمين» . كما نقرأ «استفاد منه داعياً لمالكه أحمد بن على المقريزى سنة ٨٠٣» . وكذلك «طالعه أحمد بن عبد الله ابن الأوحدى سنة ٨٠٢» . ثم قراءاتٍ أخرى .

وليس هذا كل ما نجده على الغلاف بل نجد أيضاً ختم السلطان «المؤيد شيخ» الذى ولى سلطنة مصر بين سنتى ٨٠٨ و ٨٢٤ وبجانبه إشارة إلى أنه وقف النسخة على مكتبة مسجده . ومعنى ذلك أن النسخة انتقلت إلى مصر منذ القرن الثامن للهجرة فإن ابن دقماق توفى سنة ٧٩٠ ولعل الذى نقلها هو الصفدى نفسه . ثم اشتراها – فيما بعد – السلطان المؤيد شيخ ، وحبَسها على مكتبته لطلاب العلم ورُوَّاده ، وظلوا يطَّلعون عليها ويسجلون ذلك فى عصور مختلفة ، وممن دوَّن اطلاعه عليها الشريف أحمد بن محمد الحنفى الحموى سنة ١٠٨٧ للهجرة ، ومحمد بن محمد الأمير العالم الأزهرى المشهور سنة ١١٩١ ، وللشيخ حسن العطار شيخ الأزهر المعروف فى القرن الماضى تعليقاتٌ وحواشٍ مختلفة عليها ، وخاصة على قسم مصر .

وفجأة تصيب غوادى الزمن النسخة ، فإذا أوراقها تضطرب ، وإذا بمجاميع من هذه الأوراق تَسْقُط . ، ويُسْتَخْرَج ما بقى من ذلك ، ويُنْقَل إلى دار الكتب المصرية ، فتسجله تحت رقم ١٠٣ م تاريخ ، وتغلفه فى أربعة

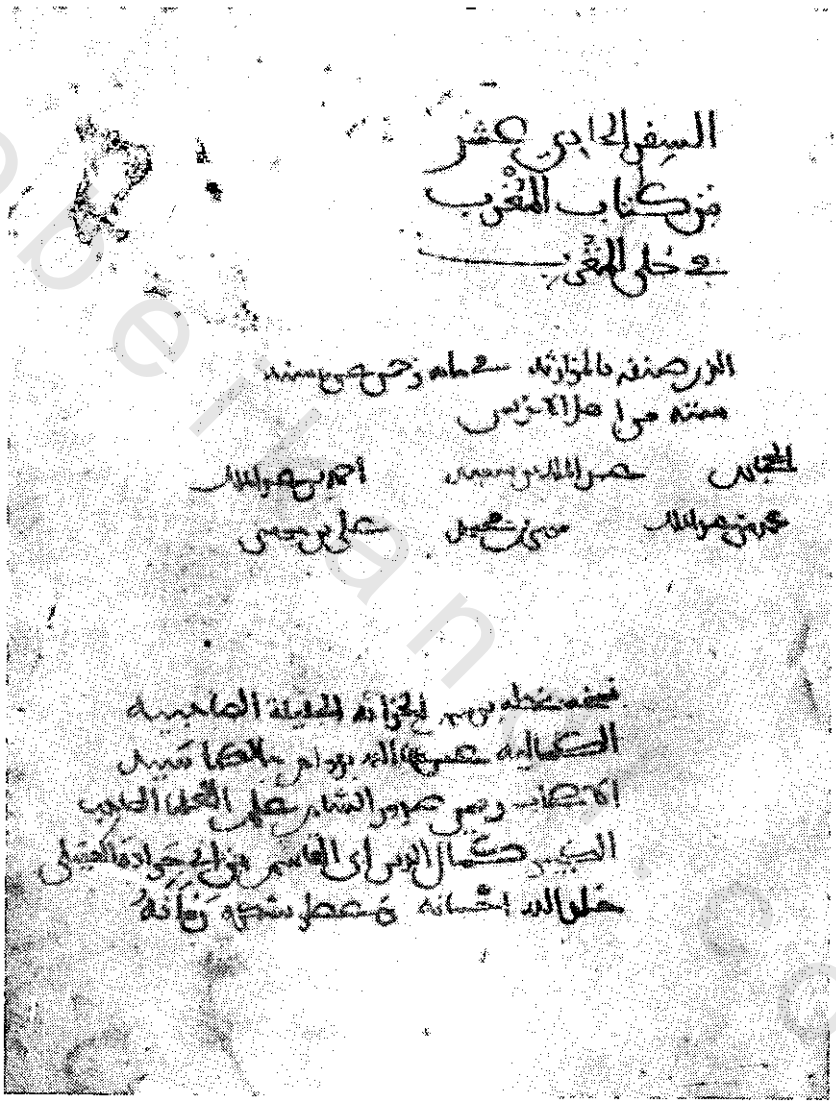

(نموذج للصفحة الأولى من السفر الحادى عشر – نسخة دار الكتب المصرية)

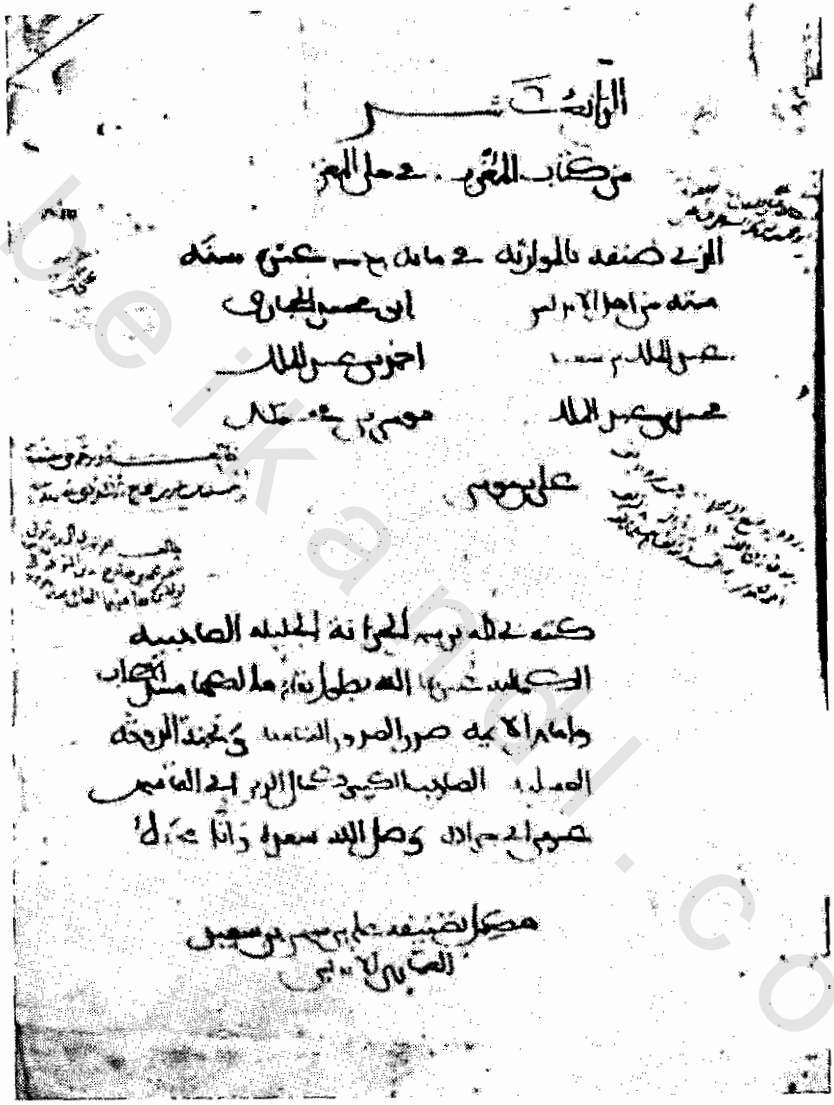

(نموذج للصفحة الأولى من السفر الرابع عشر – نسخة بلصفورة)

مجلدات كبار . ويسمع بها الباحثون من المستشرقين وغير المستشرقين فيحجُّون إليها راجين أن يستطيعوا نشرها أو نشر أجزاء منها ، فيجدونها ورقاً متناثراً ضُمَّ بعضه إلى بعض فى غير نظام إلا ما كان من قطعتين خاصتين بالدولة الطولونية والدولة الإخشيدية وبقية سلك الفسطاط ، فينشر ڤولرز القطعة الأُولى الخاصة بالطولونيين ، وينشر تلكوست القطعة الثانية .

وتظل بقية « المُغْرِب » مهملة ، ويظل الأمل يراود مَنْ يطَّلعون على النسخة فى نَشْرِ قِطَعٍ منها توصَل أوراقها ، وتُعْرَف مواضع تسلسلها . وما زال هذا شأن النسخة حتى حاولتُ أن أنشر النص الأندلسى منها . وقد مكثت أشهرًا متعاقبة أبحث فيها وأردُّ الأوراق إلى مواطنها الأصلية من تتابع الكلام . وكلما نسَّقتُ قطعة استهوتنى قطعة ثانية حتى أعَدْتُ لأوراق هذا النص الأندلسى ترتيبَها ونَسَقَها الأصلىَّ .

وقد وجدتُ أكثر ممالك المَوْسَطَةِ مفقودة ، بل بعبارة أدق وجدتها جميعاً مفقودة إلا قطعة عن طُلَيْطلة ، ووجدت مُرْسية قاعدة تُدْمير مفقودة هى الأخرى ، غير أوراق سقطت فخلَّفتْ فى النص خروماً مختلفة .

فانصرفت بعد ترتيب النص عن نشره ، وإذا بمعهد المخطوطات فى الجامعة العربية يعثر فى مكتبة « ببلصفورة » بالقرب من « سوهاج » على قطعة جديدة من « المُغْرب » ضمَّت نحو مائتين وثلاثين ورقة منه ، فاطلعت على هذه القطعة ، وإذا بها من النسخة السابقة نفسها التى كتبها على بن سعيد لصديقه ابن العديم ، فهى أوراق نُزعت منها ، وذهبتْ إلى بلصفورة ثم قُدِّر لها أن تعود .

وهذه القطعة الجديدة أيضاً ورق متناثر جُمع بعضه إلى بعض جمعاً مضطرباً ، فكان أولُ عمل قمت به أنْ رتَّبْتُه ، وأعدت له نَسَقه ، وإذا هو يضم أكثر الممالك الوسطى فى الأندلس ، بل قل إنه يضم البقية التى كنا نبحث عنها كما يضم مُرْسية قاعدة مملكَة تُدْمير .

وحينئذ رأيت نصَّ الأندلس فى كتاب « المُغْرِب » يستقيم ويصبح

جديرًا بالنشر . حقًّا فُقِد منه السفر الأول وهو السفر العاشر بين أسفار «المُغْرِب» الخمسة عشر ، ولكن الأسفار الخمسة الأخرى من الحادى عشر إلى الخامس عشر بقيت إلا أوراقاً قليلة سقطت منها . وربما كان أهم ما سقط من الأجزاء الخمسة تاج إشبيلية أو حديث مصنفى «المغْرِب» عن المعتمد بن عباد وأسرته ، ولكن هذا ليس شيئاً مذكورًا بجانب ما احتوت الأجزاء من عتاد أو مادة عن بقية مدن الأندلس بل عن إشبيلية نفسها ، فقد احتفظت الأجزاء بمجموعة ضخمة من تراجمها بلغت نحو أربعين من وزرائها وكتّابها وقُضاتها وعلمائها وشعرائها سوى الأهداب وما فيها من موشحات وأزجال ، عِدّةُ أوراقها نحو ثلاثين .

وهذه الأجزاء أو الأسفار الخمسة تبتدئ بترجمة الحكم الرَّبَضِيِّ فى الجزء الحادى عشر ، ومعنى ذلك أن الجزء أو السفر العاشر استقلَّ بالمقدمات الطويلة عن وصف جزيرة الأندلس ومآثرها وخصائص أهلها وفضائلهم مما يجده القارئ منقولاً عن «المُغْرِب» فى «النفح» من صحيفة ٨١ إلى ١٠٨ وكذلك من صحيفة ١٢١ إلى ١٤٠ فى الجزء الأول ، وأيضاً من صحيفة ١٠٥ إلى ١٥٠ فى الجزء الثانى . فهذه نحو تسعين صحيفة من «النفح» نُقِلت عن السفر العاشر من «المُغْرب» كما نُقِل عنه مِنَصَّةُ قرطبة وتقسيمات مملكتها وقد شغلت فى الجزء الأول من «النفح» ثمانى عشرة صحيفة من ٢٩٧ إلى ٣١٤ . ويمكن استخلاصُ مَنْ سَبَقَ الحكمَ الربضّى فى تاج قرطبة من «النفح» أيضاً .

ولم نحاول أن نجمع هذا السفر من «النفح» ونعيد نشره ، لأنه منشور فعلاً فيه . ومعنى ذلك أننا ننشر الأجزاء أو الأسفار الخمسة التى لم يسبق نشرها باعتبارها شيئاً جديدًا يفيد الباحثين . على أنه ينبغى أن نلاحظ أن هذه النسخة من «المغْرب» التى ننشر منها هذه الأسفار الأندلسية ليست هى النسخةَ التى اطلع عليها المقَّرى ، واقتبس منها أكثر مادته فى «النَّفْح» . فإن كثيرًا من جوانب هذه المادة لا يتطابق فى أشعاره وأخباره وتراجمه مع مادة

نسختنا . ولا يمكن أن يعلَّل ذلك إلا بأن المقَّرى اطلع على نسخة أخرى . وفى « النفح » نفسه ما يقطع بذلك فإننا نجد المقرى يقول : « وُجد بخطه [على بن سعيد] آخر جزء من كتاب «المُغْرِب» ما نصه : « أَجَزْتُ الشيخ القاضى الأجل أبا الفضل أحمد ابن الشيخ القاضى أبى يعقوب التيفاشى أن يرْوِىَ عنى مصنَّفى هذا ، وهو المُغْرِب فى محاسن المَغْرِب ، ويُرْويه من شاء ثقةً بفهمه ، واستنامةً إلى علمه[1] » ؛ ولا نجد هذه الإجازة على الجزء الأخير من نسختنا .

وأخرى فى « النفح » وهى أن تقسيمات غرب الأندلس إلى ممالكه خالفت فى ترتيبها ترتيبَ نسختنا ، ففى « النفح » تتوالى الممالك هكذا : قرطبة ، إشبيلية ، مالقة ، بَطَلْيَوس ، شِلْب ، باجة ، أشبونة[2] ، وفى نسختنا تتوالى على هذا النحو : قرطبة ، إشبيلية ، بَطَلْيَوْس ، شِلْب ، باجة ، أشبونة ، مالقة .

وأكبر الظن أن نسخة المقرى متأخرة عن نسختنا ففيها زيادات كثيرة ، ونحن نرجِّح أن تكون نسختنا أول نسخة كتبها على بن سعيد من « المُغْرب » إذ نرى فيها آثار العمل حين يخرج لأول مرة ، فإنه يكون فى حاجة إلى بعض التنقيح والإصلاح . ونجد ابن سعيد يُصْلح فى نسختنا بعض العُنْوانات ، فقد كتب هذا العنوان « كتاب نَقْش الحنَش فى حلى حصن شَنَش » ثم ضرب على كلمة « نقش » وكتب فوقها « ترقيش » . وفى العادة يؤلِّف أسماء الكتب من سجعتين ، ولعله كان يريد بذلك ضبط اسم البلدة ، ونجده أحياناً لا يأتى بالسجعة المطلوبة كما فى شلوبينة ولوشة . وقد يترك لذلك بياضاً ، كأن السجعة المطلوبة استعصت عليه ، فترك موضعها خالياً ليعود إليه فيما بعد فيملؤه . وقد يذكر لبلدة سجعة فى تقسيم الكورة الخاصة بها ، ثم يترك هذه السجعة إلى أخرى حين يعقد لها كتابها الخاص .

وبجانب ذلك نجده يخطئ أحياناً بعامل السرعة فى النَّسْخ ، ففى ترجمة

---

(١) النفح ٦٨٢/١ .

(٢) النفح ١٣٩/١ .

أبي حفص عمر بن الشهيد شاعر المريَّة يقول : «ومن الذخيرة» . والعبارة التالية بعد ذلك منقولة عن «جذوة المقتبس» للحُمَيْدى . وفى ترجمة أبى عبد الله بن شرف يُنْشد هذا البيت :

همُ زهرة الدنيا على أنهم جفَوْا وهمْ موضع اللُّقْيا حتّى إنهم بانوا

وواضح أن كلمة «حتّى» تكسر البيت وأنه كان موضعها كلمة أخرى مثل «ولو» أو نحوها ، ولكن سرعة ابن سعيد أنسته الوزن وصحته . وقد ترجم لأبى الحسن بن اليسع فى حصن قَوْلية من مملكة جَيَّان ، ثم عاد فترجم له فى مُرْسية قاعدة مملكة تُدْمير .

وهذه كلها أشياء تدل فى جملتها على أن نسختنا كانت أول نسخة كتبها على بن سعيد من تصنيف «المُغْرب» . وقد كتبها بخط مغربى ، وهذا طبيعى لأنه أندلسى ، ولكنه حاول أن يقلِّد الخط المشرقى ، وبذلك أصبحت قراءة النسخة لا تتعذَّر ، وخاصة أنها بخط كبير يشبه الثلث وإن لم يتبع قواعده . وهى منقوطة نقطاً كاملاً وأُضيف إلى النقط بعضُ الشكل ، ولم توضَع حِلْيَاتٌ ولا علامات خاصة . وعدد سطور الصفحة خمسة عشر سطرًا وطولها ٣١ س. م وعرضها ٢٤ س. م والمكتوب منها ٢٥ س. م طولاً و ١٨ س. م عرضاً .

٦

طريقتنا فى تحقيقه

كانت أولُ خطوة قمت بها فى تحقيق هذا النص أن حاولت إعادة أوراقه المضطربة إلى مواضعها من الكلام . وأعانتنى على ذلك أربع وسائل : الوسيلة الأولى تقسيمات النص لممالك الأندلس وكُوَرها ، وهى تقسيمات تلقانا فى كثير من أوراقه ، وكانت المفتاح الأول فى معرفة حدوده وفصوله .

والوسيلة الثانية لا تقل أهمية عن الوسيلة السالفة وهى ثلاثة فهارس احتفظت بها المخطوطة : فهرس السِّفْر الحادى عشر الخاص بمملكة قرطبة ،

وبعضُ فهرسِ السِّفْر الرابع عشر ، وهو يختص بأكثر ممالك المَوْسطة ، ثم فهرس السِّفْر الخامس عشر ، وهو خاص بممالك شرق الأندلس .

وفى هذه الفهارس الثلاثة تُذْكَرُ الأعلامُ المترجمة مرتبةً حسب وقوعها فى سفرها . وبذلك كانت هذه الفهارس مفاتيح دقيقة لا تخطئ فى معرفة اتصال الأوراق فى أسفارها الثلاثة المذكورة . أما السِّفْران الثانى عشر والثالث عشر فلم يكن بين أيدينا مفاتيح لفكِّ طلاسمهما سوى المفتاح الأول أو الوسيلة الأولى ، وهى لا تكفى فى معرفة ترتيب التراجم الخاصة بالبلدة الواحدة وتلاحُقِها بعضها وراءَ بعضٍ كما يرى القارئُ لإشبيلية مثلا .

وهنا تظهر أهمية وسيلتين أو مفتاحين آخرين ، وهما « كتاب رايات المبرزين وغايات المميزين » لعلى بن سعيد وكتاب « نفح الطيب » للمقرى . أما كتاب الرايات » فإن على بن سعيد اتبع فيه تقسيمات لا يطلع عليها قارئ حتى يظن أنها تماثل تقسيمات « المُغْرب » العامة ، فقد تحدث فيه عن شعراء الأندلس ووزَّعهم على البلدان المختلفة على نحو ما صنع مصنِّفو « المُغْرب » . غير أنه يُلاحَظُ أن على بن سعيد خالف فى « الرايات » بعض تقسيمات « المُغْرِب » فجعل قرطبة فيه مثلاً من الموْسَطة ، بينما هى فى « المُغْرِب » من الغَرْب .

ومع ذلك فقد كان هذا الكتاب رائدًا طريفاً فى التعرُّف على كثير من أوراق هذا النص ، تارة عن طريق وَضْع الشاعر فى بلدته الخاصة ، وتارة عن طريق شعره الذى يرويه له ، إذ اختار ما فيه من أشعار كما يقول فى مقدمته من كتاب « المُغْرب » نفسه .

وعلى نحو ما أفدتُ من كتاب « الرايات » أفدت من كتاب « نفح الطيب » للمقّرى لا عن طريق التراجم التى نقلها هذا النص فحسب ، بل أيضاً عن طريق الأخبار والأشعار التى يسوقها فى كتابه ، فإنها فى جملتها اشْتُقَّت اشتقاقاً وانْتُزِعَت انتزاعاً من « المُغْرِب » ، بحيث يُعَدُّ « النفح » فى أكثر جوانبه نسخة ثانية مشوشة لهذا النص ، فكنت ألجأُ إليه دائماً

لأَرفع الشبهة وأَسُدَّ الخَلَّة ، وأصلح ما أفسدتْه الأَيدى الجانية على الكتاب وأوراقه .

وظلت صعوبة جاثمة ، فإن بعض الأَوراق تآكل أعلاها أو أسفلها أو طُمست جوانب منها ، وتصادف أن كان فى هذه المواضع المتآكلة أو المطموسة عنوانات لبعض من ترجم لهم النص . وقد استطعت فى كل الأَحوال أَن أُعيِّن العُنْوانات من الشعر الذى تلاها ، كما استطعت أَن أملأَ الفراغ الذى صاحبها بشعر رواه « النفح » أَو غيره . وقد كثر ذلك فى أوراق طُلَيْطلة . وأفدتُ من « الذخيرة والجذوة والقلائد » فى غير ترجمة .

ولما تَمَّ هذا العمل واستقام النص بين يدىَّ أخذت نفسى بتحقيقه والتعليق عليه فى هوامشه ، مستمدًّا فى ذلك أولاً : من المصادر التى اعتمد عليها مصنِّفوه من مثل « الجذوة » للحميدى و « قلائد العقيان ، والمطمح » لابن خاقان ، و « الذخيرة » لابن بسام ، واعتمدت فيما لم يطبع منها على مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة ، ثم « نقط العروس فى تواريخ الخلفاء » لابن حزم ، و « تاريخ علماء الأَندلس » لابن الفرضى ، و « الصلة » لابن بشكوال ، و « اليتيمة » للثعالبى و « المسالك والممالك » لابن حوقل ، « والخريدة » للعماد الأَصفهانى .

و بجانب مصادر النص هذه رجعتُ إلى طائفة من الكتب التى عُنيتْ بالأَندلس ، تاريخها أَو أدبها : شعرها ونثرها . ومن هذه الكتب المخطوط ، ومنها المطبوع . فمن المخطوط ، وكلُّه بدار الكتب المصرية ، « الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة » و « اختصار القِدْح المُعلى فى التاريخ المُحَلى » وهما من عمل ابن سعيد آخر مصنفى « المُغْرب » ، ومع أَن الأَخير فى حقيقته مختصر لكتابه « القِدح » إلا أَنه مفيد فائدة عظيمة ، إذ كل تراجمه تقريباً جاء فى هذا النص . وقد طبع هذا الكتاب وسالفه أَخيرًا . ومن المخطوط أَيضاً الذى رجعت إليه « معجم السَّلَفى » و « المحمدون من الشعراء » للقفطى و « مسالك الأَبصار » لابن فضل الله العُمَرى و « الوافى بالوفيات »

للصفدى ، و « شرح ابن زاكور على القلائد » وديوان الأعمى التطيلى ، وديوان ابن قزمان وقارنت بين أزجاله التى رواها مصنفو « المُغْرِب » وبين نَصِّها فى ديوانه ، ليعرف القارئ مدى الاختلاف بين الروايتين . ومعروف أن رواية الديوان شرقية بينما رواية مصنفى « المُغْرِب » مغربية . ورجعت أيضاً إلى مختارات ابن مبارك شاه فى « السفينة » لابن الزقّاق والرصافى .

أما الكتب المطبوعة فرجعت منها إلى « قضاة قرطبة » للخشَنى و « تاريخ قضاة الأندلس » للنباهى و « بغية الملتمس » لابن عميرة الضبى و « معجم الصدفى » و « التكملة » و « تحفة القادم » و « الحلة السِّيَراء » لابن الأبار و « جمهرة أنساب العرب » لابن حزم و « طبقات الأمم » لصاعد و « طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة و « معجم الأدباء » لياقوت و « إنباه الرواة على أنباه النحاة » للقفطى و « بغية الوعاة » للسيوطى و « الديباج المذهب » لابن فَرْحون و « تاريخ ابن خلدون » و « المعجب » للمراكشى و « البيان المغرب » لابن عذارى و « أزهار الرياض » للمقرى و « شذرات الذهب » لابن العماد الحنبلى و « الاحاطة » و « أعمال الأعلام » لابن الخطيب و « بدائع البدائه » لابن ظافر و « وفيات الأعيان » لابن خلكان و « فوات الوفيات » لابن شاكر ، و « شرح مقصورة حازم » ثم دواوين ابن زيدون وابن خفَاجة وابن سهل ، وغير ذلك مما يراه القارئ منثوراً فى هوامش هذه الطبعة .

ولم نحاول أن نتخذ فى هذا النص رموزًا كثيرة تعقِّده ، وكلُّ ما اتخذناه فيه من رموز وإشارات هو هذه العلامات :

[ ] اتخذنا هاتين الحاصرتين لما سقط من السياق أو دخل عليه ، وكذلك وضعناهما على هامش الصفحات وبينهما أرقامها فى الأصل المخطوط .

١ – ٥ ورمزنا بهذه الأرقام للمجلدات المخطوطة ، وهى أربع بدار الكتب ، وتبدأ من ١ – ٤ ثم قطعة سوهاج ورمزنا إليها برقم ٥ .

و وجه الورقة من المخطوطة .

ظ ظهر الورقة من المخطوطة .

/ واتخذنا هذه العلامة للدلالة على بدء الصفحة التالية فى المخطوطة .

ـــــ ووضعنا هذا الخط فوق أسماء المؤلفين والمصادر فى النص لتمييزها .

وأظن أن هذه كلها رموز واضحة ، وطبعاً تأخذ أرقام أوراق الأصل هذا الشكل ٢٢٣/٣ ونحوها . ومعنى هذا الرقم أن ما يلى من الكلام يقع فى وجه الورقة ٢٣ من المجلد الثالث وهكذا .

ولم نضف إلى الأصل شيئاً مما سقط منه واحتفظ به « النفح » إلا أن يكون موضع مَحْو أو تآكل ، فحينئذ كنا نزيده من « النفح » أو غيره . وما عدا ذلك لم نزد شيئاً إلا بعض أوراق وضعناها قبل ترجمة الحكم مقتبسين لها من « النفح » ليفهم القارئ سياق الكتاب فى الأصل ، وحتى تكون تحت بَصره صورة وَضْعه .

وإنى لأرجو مخلصاً فى خاتمة هذا المدخل أن يعثر الباحثون فى المستقبل بين خزائن الكتب على نسخة جديدة من « المُغْرب » أو من هذا النص ، حتى يمكن إخراجه إخراجاً كاملاً . والله ولىُّ التوفيق .

كتاب
وشي الطرس في حلى جزيرة الأندلس

obeikandl.com

obeikandl.com

كتاب
وشى الطرس فى حلى جزيرة الأندلس

الذى صنفه بالموارثة فى مائة وخمس عشرة سنة
ستة من أهل الأندلس :

أبو محمد الحجارى	عبد الملك بن سعيد
أحمد بن عبد الملك	محمد بن عبد الملك
موسى بن محمد	على بن موسى

ينقسم هذا الكتاب إلى ثلاثة كتب ، هى :

١ ــ كتاب العُرُس فى حلى غرب الأندلس
٢ ــ كتاب الشفاه اللُّعُس فى حلى مَوْسَطَة الأندلس
٣ ــ كتاب الأُنس فى حلى شرق الأندلس

obeikandi.com

١ ـ كتاب العُرُس فى حُلَى غرب الأندلس

ينقسم [١] هذا الكتاب إلى سبعة كتب ، هى :

ا ـ كتاب الحُلَّة المذهَّبَة فى حُلَى مملكة قُرْطُبَة

ب ـ كتاب الذهبية الأَصيلية فى حُلَى المملكة الإشبيلية

حـ ـ كتاب الفرْدَوس فى حلى مملكة بَطَلْيَوْس

د ـ كتاب الخِلْب فى حلى مملكة شِلْب

هـ ـ كتاب الديباجة فى حلى مملكة بَاجَة

و ـ كتاب الرياض المصونة فى حلى مملكة أشْبُونَه

ز ـ كتاب خدع الممالَقة فى حلى مملكة مالَقَه

---

(١) انظر هنا نفح الطيب للمقرى طبعة ليدن ١/١٣٩ .

obeikandl.com